نظرة جديدة إلى فلسفة

الفن عند العقاد

دكتور

محمد مجدى الجزيرى

المطبعة الفنية الحديثة

طنطا - ش سعد الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

المطبعة الفنية الحديثة

طنطا شارع سعد الدين

١٩٩٣

تصدير

فى يناير عام ١٩٩٠ عقد بمدينة اسوان مؤتمرا علميا شارك فية العديد من أقطاب الفكر و الآدب فى بلادنا ، وفى هذا المؤتمر قدمت العديد من البحوث و الدراسات العلمية . وفى ختام اعمال المؤتمر تقرر إصدار جميع البحوث فى مجلد واحد على نفقة وزارة الثقافة ، كما تقرر عقد مؤتمر كل عام بمدينة أسوان ويبدو ان قرارات المؤتمر اسدل عليها ستار النسيان ، لذا فقد ارتأى الباحث نشر الدراسة التى قدمها فى المؤتمر وعنوانها" نظرة جديدة الى فلسفة الفن عند العقاد" تحيه وتقديرا لمفكرنا العربى الكبير

د./ مجدى الجزيرى

(١)

نظرة جديدة الي فلسفة الفن

عن العقاد

لعل الدخول الي العالم الجمالى و الفني عند العقاد يقدم لنا العديد من المفاتيح التي تتيح لنا المرور عبر البوابات و الطرق المتشعبة و المتنوعة المؤدية الي فكرة ، كما يقدم لناصورة واضحة المعالم الي حد ما عن رؤيته الفكرية و الفلسفية التي انطلق منها . هنا يمكننا التعرف علي نظرات العقاد التي تغلغلت في كتاباته حول العديد من القضايا و الموضوعات كما يمكننا التعرف علي العلاقات المتشابكة و المتداخلة التي تربط بينهما في اطار موحد .

ولاشك انه يوجد اكثر من مدخل للنفاذ الي عالم العقاد ، وكل منها له اهميتة في التعرف علي عالم العقاد ، وهو في حقيقته عالم يتميز بالخصوبة و التنوع و الثراء . فالعقاد كما عرفناه هو المفكر و الباحث و الاديب و الناقد و السياسي و المؤرخ ، و العقاد كما عرفناه هو ايضا فيلسوف الفن و الجمال .

فالعقاد المفكر و الفيلسوف هو العقاد الذي قدم لنا العديد من النظرات الفلسفية حول طبيعة الوجود ونظرية المعرفة وعالم القيم وهو الذي قدم تحليلاته العميقة وتعقيباته المتألقة للعديد من

المذاهب الفلسفية و افكار الفلاسفة علي مر العصور .

و العقاد الفنان هو الشاعر و القصاص الذي ترك بصماته الواضحة علي ابداعنا المعاصر . و العقاد الناقد لم يقتصر علي نقد الادب بل تجاوزه الى نقد الفنون التشكيلية و نقد فنون الغناء و الموسيقي و التمثيل و الرقص . و العقاد السياسى هو المناضل وصاحب التحديات و المعارك الشهيرة في تاريخنا المعاصر و العقاد المؤرخ هو الذي قدم لنا اروع الدراسات عن التاريخ الاسلامى قديمة و حديثة كما انه صاحب العبقريات الاسلامية الشهيرة وهو في كل ما كتبه لم يكن مجرد مؤرخ يسرد الحوادث و انما كان ايضا فيلسوف للتاريخ . يعايش وقائعه ويتفاعل معها ويستخرج مضامينها الجوهرية ويجلو حقائقها ويدافع عنها .

واذا كان لكل جانب من هذه الجوانب اهميته و حيويته . فأننا لن نستطيع ان نقدم عالم العقاد لو اقتصرنا علي جانب واحد منها فقط . و علي الرغم من ذلك فأننامنذ البداية نعلن تحيزنا لجانب او مدخل واحد ، وهو فلسفة الفن و الجمال عند العقاد . حقاأن رؤية العقاد الجماليه والفنيه لم تكن ابداً معزوله عن السياق او الاطار العام لفكره ككل . بل جاءت نتيجة طبيعية لازمة له . لكننا من خلالها ايضا . اي من خلال النتيجة يمكننا ان نتعرف علي المقدمات

التي ولدتها و انتجتها . وقد اخترنا النتيجة موضوعا لبحثنا ، وان كنا من خلالها لم نستطع ان نتوقف عندها وحدها بل اضطررنا الى الخوض في المقدمات التى اوجدتها بالقدر الذي يسمح لنا بالتعرف علي الدلالات الجمالية لها .

فالعقاد كمفكر و فيلسوف اتجه الى تنظير الفن و تأ مله . شأنه في ذلك شأن العديد من القضايا و الظواهر التي تطرق اليها فكره وهو كفنان و اديب عايش تجربة الابداع في الشعر و القصة و المقال الادبي كما عايش تجربة التذوق و التلقي للعديد من الفنون كالفنون التشكيلية و الموسيقية و التمثيلية . وبذلك جمع في نظرته الجمالية بين الخبرة الجمالية و الفنية وبين تنظيرها العقلى و التأمل فيها . ومن هنا بدت فلسفته في الفن و الجمال محصلة لذلك التعايش بين الفكر و الخبرة .

واذا كان العقاد قد جمع بين التأمل العقلى للفن و الخبرة المعاشة له فإنه قد جمع ايضا بين فلسفة الفن و النقد الادبى والفنى. فلم يكن العقاد فيلسوفا او عالما للجمال فحسب . بل كان ايضا ناقدا من الطراز الاول اتسع نقده و تشعب و تجاوز العديد من الفنون المتنوعة و المتميزة وهو بممارسته النقد فى كل هذه المجالات قدم لنا النموذج الصادق و التفهم العميق للوحدة الكامنة بين

الفنون المختلفة . اوقل انه باهتماماته النقدية التطبيقية قدم بصورة ضمنية ما يؤكد ارتباطه العميق بعلم الجمال وفلسفة الفن .

فإذا كان علم الجمال لا يختص بنوعية واحدة من الفنون و يؤكد منذ البداية اهمية ادراك الوحدة العميقة بينهمافإن ممارسات العقاد النقدية فى العديد من الفنون و المنطلقة من رؤية جمالية فلسفية تعد خير دليل علي تفهم و حدة الفن وراء مظاهره المختلفة .

والعقاد المفكر و الفيلسوف هو العقاد الفنان و الاديب كما هو بعينه صاحب الفلسفة الجمالية . ومثل هذا التوحد بين الميادين المختلفة التي خاضها العقاد يؤكد لنا و حدة الرؤية ووحدة الموقف التى انطلق منها فالعقاد مع تنوع و تعدد اهتماماته لكنه في نهاية المطاف صاحب صورة واحدة ومن خلالها نستطيع التعرف علي هذا التنوع . بحيث يمكن القول ان مبدأ الوحدة في التنوع وهو من المبادئ الهامة في تناول العمل الفني يصدق علي علاقة العقاد بمجالات ابداعه و اهتمامه . و قد عبر العقاد نفسه عن هذا المبدأ الي حد ما عندما قال " انني انظر الي الدنيا نظرة فيها من الشمول اكثر مما فيها من التفصيل . وان الحياة و الزمان و العالم كله عندي جملة واحدة متماسكة ليست المظاهر الفردية فيها الا اجزاء عارضة تنال قيمتها بقدر ما تحتويه من ذلك الكل العظيم . وكأن الاشخاص

والشخوص الفردية في هذه الصفة عملة الورق التي لا قيمة لها بذاتها . ولا بالذهب الذى تمثله ولكن قيمتها الصحيحة بالجهد الحى الذي تساوية و الثروة العينية التي تدل عليها
(٢)

ما اكثر الجوانب الغنية في رؤية العقاد ككل . و ليس فى استطاعتنا ان نتعرض لها جميعا و ان كنا نرى ان ابرز منطلقاتها يمكننا تحديده في عدة مقولات مرتبطة بعضها ببعض في كيان واحد علي النحو التالي : اولوية الروح على المادة ، اولوية الذات علي الموضوع . اولوية الحرية علي الطبيعةو الضرورة ، وفلسفة الفن عند العقاد تؤكد بدورها هذه المقولات وتبرزها لنا فالعقاد من دعاة النزعة الروحية القائلة بأن الروح وحدها هي حقيقة الوجودوليس المادةوهنا يقول " الصواب عندى ان العالم كلة قوي من طبيعة الروح التي نتصورها . وما الفرق بين الباطن والظاهر منها الا فى طريقة الادراك . واستعداد الحواس . ويقول ايضا" في المادة تستطيع ان تشك و تفرط في الشك قبل ان تواتيك دواعي الشك في عالم الروح .

وعندما يتعرض لكتاب عن حياة ناسك من طائفة اليوجى المشهورة التي تحاول بالرياضة الروحية ان تتسلط علي الجسد

وتملك زمام الطبيعة وهو كتاب ترجم في تسع امم اوربية و امريكية وحظي باهتمام واسع في العالم الغربى فانه يبرز هذا الاهتمام و الذيوع فى مقالة عن الغرب الحائر" بقوله" اول ما يدل علي هذا الاقبال علي " الصوفية الشرقية " ان الغرب حائر يتخبط وانه قد آمن بافلاس حضارته المادية فهو يبحث عن قبله اخرى يلتمس عندها الايمان . (١)

ومن نفس المنطلق ايضا كان كتابه " عقائد المفكرين في القرن العشرين " الذي اراد به تأكيد دور العقيدة الدينية في مسيرةالحضارة الغربية المعاصرة . كما كان تقييمه للمذاهب الفلسفية المختلفة وهجومه علي بعضها كالوضعية المنطقية و الماركسية من منطق تجاهلها عالم الروح . وتقديرة للجناح المؤمن من الوجودية وخاصة عند بردياثف الذي تميزت وجوديته بنزعة صوفية روحية دفعت العقاد للاشادة به و تناوله فى اكثر من موضع في كتاباته . (٢)

واذا كانت الروح عند العقاد هي حقيقة الوجود ، فإن الذات عند العقاد لها الاولوية على عالم الموضوع . وهى تقع في الطرف المقابل له ولا ينبغي ردها اليه . و الحقيقة عند العقاد ليست موضوعية بقدر ماهي ذاتية . و بالتالي فالتفكير عنده ليس عقلانيا موضوعيا

مجرداً . بل هو جزء من الحياةونوع من الابوة و معايشة صادقة وهنا يقول " ليس يسرني ان تنتمى الى افكار كل من اقلتهم هذه الارض من الادباء و الحكماءوالعلماء ، اذا كانت غريبة عنى بعيدة النسب من نفسى و المعرفة عند العقاد هي بدورها معرفة ذاتيه متكاملة لا تقتصر علي العقل وحده وهنا يقول العقاد " ان الانسان لايحيا بالعقل وحده ولا يفهم بالعقل وحده . ولكنه يحيا بالحياة التى هى مجموعة من الحس والغريزة و العطف و البداهة و الخيال و التفكير وكذلك يفهم بالحياة التى هى مجموعة من هذه الملكات كيفما تعددت فيها التسمية و التقسيم فانت اذا اردت ، ان تفهم انسانا فليست كل وسائلك الى فهمه ان تسط عليه ملكة التعليل و التحليل. بل انت مشترك في فهمه بخيالك وحسك و غريزتك وتفكيرك وعطفك وجميع اجزاء حياتك وشأنك في فهم الكون كشأنك في فهم الانسان او فهم اي شيئ من الاشياء وخاطره من الخواطر فقولك : تفهمها مرادف لقولك : تحسها وتتخيلها وتشملها بعطفك و بديهتك وفكرك ولأن تحس ما ينبغى لك عمله دون ان تقوى على تعليل ذلك خيرلك والف خير من ان تعلل وتحلل وانت عاجزعن العمل و الاحساس .

وفي موضع آخر يقول " ليس للاوراق في علم صناعتى مادة غير مادة اللحم والدم . وليست المكتبة عندى ايا كانت ودائعها

بمعزل عن هذة الحياة التي يشهدها عابر الطريق ويحسها كل من يحس في نفسه بخالجة تضطرب وقلب يجيش وذاكرة ترن فيها اصداء الوجود .

وانما الكتاب الخليق باسم الكتاب في رأى هو ماكان يضعه من صاحبه في ايقظ اوقاته واتم صوره واجمل اساليبه وهو الحياة منظورة من خلال مرآة انسانية.

وعندما يتكلم العقاد عن الالم واللذة نجده يقول " ان الالم ضرورة من ضرورات الحياة وحسنة من حساناتها في بعض الاحيان وحالة لا تتخيل الحياه الانسانيةبدونها علي وجه من الوجوه .

انما تفضيل هذا الراى فهو ان الشعور بالنفس يستلزم الشعور بغير النفس . فهذه ال(انا) التي تقولها وتجمل فيها خصائص حياتك ومميزات وجودك وتعرف بها نفسك مستقلا عما حولك منفردا باحساسك هي نصيبك من الحياة الذي لانصيب لك غيره . وهى تلك الذات التى لاتشعر بهاالا اذا شعرت بشئ مخالف لها في هذا العالم الذي يحيط بها فأنت لا تكون شيئا له حياة ولذات والام ، ومخاطر ومكاره الا اذا كانت في هذا العالم اشياءاخرى غيرك ولاتكون هذه الاشياء الاخري معك الا اذا كن منها ما يلائمك ومالا يلائمك ، او يسرك .

والحق اننا بهذة الاقوال التى نطق بها العقاد و غيرها وكأننا نستمع الي مفكر وجودى من الطراز الاول يعايش الحياة ويعاينها ولا يكتفي بتعلقها وتأملها . يرفض منذ البداية ان يكون مجردموضوع من موضوعاتها بل يؤكد علي ذاتيته في مواجهتها و العالم بالنسبة له ليس هو العالم الذى نعرفه عن طريق التحليل المنطقى والنظره العلميه المجرده بل نشعر به وندخله فى انفعالاتنا و عواطفنا .

و التفكير بدوره يصدر عن تجربة ذاتية عميقة كل العمق . وبذلك ينصهر في داخلنا فتذوب برودته وتتلاشى صلابته و موضوعيته وكأنه يذكرنا بما صرح به الفيلسوف الاسباني الكبير اونامونو عندما صرح بان الفلسفة هى نتاج للطبيعة البشرية لكل فيلسوف علي حده ، فكل فيلسوف هو انسان يخاطب غيره من البشر بلحمهم و عظامهم . ومن ثم ينبغى تركه يفعل ما يريد متفلسفا لا عن طريق عقلي المنطقى فحسب بل ايضا عن طريق ارادته ومشاعره ولحمه وعظامه عن طريق روحه ككل وجسدة ككل ـ فذلك هو الانسان الذى يتفسلف حقا .

وربما كان تناول فكر العقاد من المنطلق الوجودى يبدو بعيدا عنه وهو المفكر الذى عرف عنه الاعتزاز بالعقل و المنطق . و المنطق كما يقول عنه العقاد في مؤلفه "التفكير فريضة اسلامية " هو بحث

عن الحقيقة عن طريق النظر المستقيم و التمييز الصحيح ونحن لا نختلف مع القائلين بان العقاد هو اديب الفكرة و العقل لكننا من ناحية اخري نرى ان الفكرة عند العقاد لم تكن ابدا هي الفكرة المجردة المفصولة عن صاحبها ، بل هي الفكرة التى تنبع من قائلها وتلتحم وتمتزج بوجودة ككل . الفكرة عند العقاد هي الفكرة الوجودية المعاشة . و لعل موقف العقاد من الفلسفة الوجودية يوضح هذه الحقيقة،فالوجودية عنده لها اكثر من جانب ، سليم منها يقبله و جانب مريض منها يرفضه . الجانب السليم يتمثل في ثورتها علي طغيان الجماعة و تقديسها ضمير الفرد في مسائل الاعتقاد و (٤) التفكير و تقديرها و ايمانها العميق بالشخصية الانسانية . اما الجانب المريض منها فيتمثل في موقفها من القيم واذا كان سارتر خير تعبير عن جانبها المريض فإن برديائف هو خير نموذج للتعبير عن جانبها السليم . ومن هنا كان تقدير العقاد لفكره بصفة خاصة بل يمكننا القول بتأثره به في العديد من افكاره فهو الفيلسوف الذى اعلن ثورته على الشيوعية و على الديانة الرسمية و اعتقد ان خلاص الانسان عمل من اعمال الانسان و هو ايضا الفيلسوف الذى اعلن اولوية عالم الروح علي عالم المادة و عالم الذات على عالم (٥) الموضوع ،ولم تبد الوجودية عند العقاد مقتصرة على امة دون غيرها

او عصر دون آخر ، بل انها علي حد قوله لا تنحصر في امة ولا تخلومنها امة ، لان ثورة الضمير الفردى علي طغيان الجماعة ظاهرة عامة بين جميع الامم الاوربية وكل ما هنالك من الاختلاف بين امة و امة في هذة الظاهرة هو كمقدار حاجتها الى المناداه بمبدأ الحرية الفردية ففى انجلترا مثلا توجد الفلسفة الوجودية بغير اسمها و عنوانها لان مبدأ الحرية الفردية مفروغ منه من حيث المبدأ والفكرة. واذا بدت الحرية عند العقاد تشكل القيمة المحورية التي ارتبط بها فكره او تشكل محصلة نزعته الروحية في مقابل النزعات المادية كما تؤكد انحيازه للذاتية في مقابل عالم الموضوعية فإنها تشكل ايضا النقيض المباشر لعالم الطبيعة الحتمية و الحق أن حياة العقاد جاءت كلها تتويجا لهذه القيمة العظيمة ونعنى بها قيمة الحرية و ليست نزعته الروحية و الذاتية الا تأكيدا و تدعيما لهذه القيمة فالروح عند العقاد هي الحرية و الذات عند العقاد هى الحرية . وما عدا ذلك محكوم بمنطق الضرورة و الطبيعة و الحاجة ..منطق العبودية .

(٣)

ومتي اردنا الكشف عن هذة المنطلقات العامة التى انطلق منها العقاد في فكره لوجدنا ان نظرته للعمل الفنى خير مرآة

تنعكس فيها ، فالعمل الفنى عند العقاد يتميز بطبيعته. الروحية والعقاد يقارن بين البهرج و الجمال فيقول "منتهى ما يبلغ اليه البهرج..ان نقول انه وهج في النظر وفرقعة في الاذن ، ولذع فى الحس وتهييج فى الشعور . ومتى انتهى الي ذلك فقد اتضحت طبيعته المادية ووصل الي حد المضايقة و الارهاق . اما الجمال فلايزيد في الماديةكلها زاد فى الحس والظهورولا يتمادى الي اعنات الحواس بالغا مابلغ في السمو و الكمال ولكنه يتجه الي النشوة الروحية و النعيم الذي لايشوبه حسن منزعج ولاجسد منهوك .

ويمضى العقاد في توضيح الفرق بين البهرج و الجمال ، لانه فرق بين العقبة و الطلاقة . وبين مايخاطب الطائف الحسية وما يخاطب الملاكات الروحية وبين ما يفرط فيمل الخاطر ويلتم الحس وما يفرط فيزيدك نشاطاً الي نشاط ومرح . (٧)

وفي مجال توضيح طبيعة النظرة الفنية الروحية نجده يقول ان الفلاسفة السطحيين يعيبون على النظرة الفنية الى اشياء انها نظرة الى الظواهر فى هذا الوجــود ؟ هل لهــذا الوجــود سطوح واعماق وهل فيه كينونة زائفة وكينونة صحيحة؟ اليس كل شيئ فيه علي مسافة واحدة من اعماقه اومن سطوحه؟ فالجمال البادى علي وجوه اشياء كما يقولون هوجمال متصل بالابدية اتصال اصدق

الحقائق واخفى البواطن او لعله اذا امعنا فى النظر وتأملنا مليا هو صورة الحقائق الابدية الحسنى إذا كان لهذه الحقائق من صورة يتجلى فيها وجوده لمن يحس ويرى . وتأكيدا لهذا الطابع الروحى للعمل الفني نجده يقول " لكنني لا ارى مانعا من القول في غير تحفظ ولا استثناء بأن الجمال فى الفن و الطبيعة معنوى لاشكلى.وان الاشكال لا تعجبنا و تجمل فى نفوسنا الالمعنى تحركه اومعني توجه اليه لا فرق فى ذلك بين اشكال الوجوه الادمية و الاعضاء الحية وبين مادون ذلك من الصور التى تخفى فيها معانى الحسن او تبعد الشقة بينها وبين ما تومئ اليه . (٨)

واذا كانت فلسفة العقاد تولى الذات كل اسبقية واولوية على الموضوع فإن العمل الفنى بدوره يكشف لنا عن هذة المقولة فالعمل الفني عند العقاد ليس مجرد محاكاة حرفية للواقع والموضوع واذا كنا نقسم نظريات المحاكاه الى ثلاثة" المحاكاة الحرفية الساذجة ، ومحاكاة الجوهر ، ومحاكاة المثل الاخلاقية العليا ، فإننا يمكننا القول بأن العقاد يرفض النوع الاول منها وهو الذى يقضى على ذاتية الفنان و يحيله الي مجرد استقبال سلبى للواقع والموضوع . ومثل هذة النوعية تتعارض مع طبيعةالفن بأعتباره تأكيدا لقيمة الحرية فالمحاكاة عند العقاد اقرب الي محاكاة الجوهر ، كماانها الى

حد ما محاكاة اخلاقية تؤكد العلاقة الحميمة بين الجمال و الاخلاق .
انظر اليه يقول " ان الصدق في الكتابة هو النفاذ الي روح الموضوع و الاحاطة بإصوله ومقوماته ، اما مطابقة الواقع في التواريخ فهى جمع معلومات خارجية حول الموضوع لاتمس روحه ولاتدخل منه فى المقومات فالصدق في رواية من الروايات جوانب شتى لا تنحصر في الارقام و الوقائع ولا تحد بالمشاهدة و السماع .
وللفن صدق واحد يعينه وهو صدق اللباب و الجوهر الذى يقدم ويؤخر في التفريق بين انسان و انسان وموضوع وموضوع.

والشاعر عند العقاد هو من يشعر بجوهر الاشياء لامن يعددها ويخص اشكالها والوانها وليست قريبة الشاعر عند العقاد ان يقول لك عن الشئ ماذا يشبه وانها ميزيتة علي حد قوله ان يقول لك ماهو ،ويكشف لك عن نهاية وطنه بالحياه .

وعلي هذا النحو فالعمل الفنى اسير الموضوع ، مقيد به فلا مجال لحريته وحرية الفنان المبدع له .

والفنان منْ ناحية اخرى اذا كان يقدم لنا جوهر الواقع فى ابداعه الفنى فانه يقدم لنا ايضا المثل العليا الرفيعة، اى انه بالاضافه الى محاكاته جوهر الواقع فانه قد يحاكى المثل العليا وهنا يقول العقاد " ففى الادب كل مافى الحياة من حاضر ومغيب من

فرائض وآمال ومن شعور بالضرورة فى الطبيعه التى تطلع لحرية المثل العليا وواجب على الذين يفهمون عظمة الحياة من ابناء هذا الجيل ان يحسنوا فهم هذه الحقيقه ليعلموا ان الامم التى تصلح للحياة وللحرية لايجوز فى العقل ان يكون لها غيراً أدب واحد وهو الادب الذى ينمى فى النفس الشعور بالحياة والحرية .

واذا كان فلاسفه الحضارة قد قدموا لنا العديد من المعايير التى ترى الحضارة من خلالها فمنهم من تناولها فى ضوء ابعادها الاقتصادية والاجتماعيه كما نجد عند اصحاب الفكر الماركسى ومنهم من تناولها فى ضوء بعدها الاخلاقى كمانجد عند شيفترز ومنهم من تناولها فى ضوء بعدها الدينى كما نجد عند هوفدنج ومنهم فى تناولها فى ضوء ضرية المعدفه كما نجد عند كاسيرر ومنهم من تناولها فى ضوء بعدها العلمى والتكنولوجى كما نجد عند فلاسفه التحليل والوضيعة المنطقية واصحاب الامزجه العلميه.

عموما اذا كنا نجد العديد من المنطلقات فى دراسة الحضارة فاننا نجد عند العقاد نظرة جماليه حضارية للحضارة فى مجملها. فالحضارة عند العقاد ينظر اليها من خلال منظور واحد وهو منظور الفن والجمال . وفى هذا الصدد نجده يقول " وكثيرا مارأينا أناسا يظنون انهم فهموا طبيعه الرقى فى الامم وعرفوا مواضع الداء

فتسمعهم يقولون ماللأمم وللاحاديث والاحلام ؟ ان الامم تحتاج الى العلوم والصناعات ولاحاجة بها الى الآداب ولا الفنون وهم لايقولون ذلك الالأن غايه ماعلموه عن الآداب والفنون انها احاديث واحلام وان الامم بالبداهه لاترقى بالاحاديث والاحلام .. فخليق بهؤلاء ان يتدبروا ماقدمناه ويفقهوه ويعلموا ان حظ الامة من الشعر والغناء والادب ومن الاحاديث والاحلام ايضا انما يكون عى قدر حظها من الحياة واننا قد نستطيع ان نتخيل امة قوية مجيدة بغير علوم ولاصناعات ولكننا لانستطيع ان نتخيل امة قوية الطباع والاخلاق بغير آداب . وانه لافلاح لامه لاتصحح فيها مقاييس الآداب ولاينظر اليها النظر الصائب القويم، لان الامم التى لاتعرف الشعور مكتوبا مصورا لاتعرفه محسوسا عاملا. وان ليس قصارك اذا صححت للآمة مقياس كتابتها وشعرها ان تهب لها كلمات واوراقا وانما انت فى الحقيقه تهب لها شعورا قويا ومجدا صميما تهب لها دما فى عروقها ونورا فى ضمائرها ونفوسها. (٩)

والعقاد فى اتخاذه الفن معيارا يقاس به حضارة الامم انما يذكرنا الى حد ما بما قاله وايتهد فى فلسفة الحضارة . فاذا كان وايتهد قد قدم لنا عدة معايير للحضارة وهى المغامرة والسلام والصدق والجمال والفن فانه يلاحظ انه لم يدرج العلم وهو من اكبر فلاسفه

العلم فى عالمنا المعاصر ضمن العناصر الجوهرية التى قدمها لنا وتفسير ذلك ان وايتهد لاحظ ان الكثير من التقدم نحو الحضارة قد تم فى الصين مع أن انجازاتها فى حقل العلم لم تكن ذات اهمية. وهذا ينطبق على الهند وفارس ثم ان الاغريق احرزوا القليل من التقدم فى مجالات المعرفه العلمية الدقيقة فى تفاصيلها . ونصيب الرومان اقل من هذا الصدد بل ان العلم العربى الحديث لم يحرز تقدما ملموسا الا فى القرن السابع عشر الميلادى . وهو مايؤكد ان الحضارات يمكنها ان تكشف من مزايا المغامرة والسلام والصدق والجمال والفن ودون اهتمام بالنشاط العلمى. واذا كان الفن عند العقاد هو مقياس التحضر فاننا نجده يقرن الفن بالحرية . ويصبح الفن بدوره دليلا على الحرية وهنا نجده يقول يقاس حب الامم للحرية بحبها للفنون الجميلة لان الصناعات والعلوم النفعيه مطلب من مطالب العيش تساق اليه الامم مرغمه مجبرة فالامم كافه تحرث الارض وترفع الماء وتحفر المناجم وتنشىء الاسواق وتبنى على ذلك ماتبنى من علوم فى الزراعه والهندسة والاقتصاد لانها محتاجة الى ذلك كله لاحيلة لها فى دفعه ولاطاقه لها بالتوانى فيه والاعراض عن الحاح دعوته بل امره. مثلها فى ذلك مثل من يأكل الطعام لانه يجوع ومن يشرب من الماء لانه يظمأ ومن يتدثر باللباس لانه يحس لذعه

القر ورعده البرد ومن ينام لانه يشعر بالتعب ينهكه ويتمشى فى عروقه واوصاله . ومن يعمل اى شىء لايكون فيها الانسان الا عبدا للطبيعة مكتوفا موثقا لايمد يده ويرضيها الا مجذوبة بالقيد فى حالى المد والارضاء وانما تعرف الامم الجمال حين تأخذ فى التفضيل بين شىء جميل وشىء اجمل منه وتتوق الى التمييز بين مطلب محبوب ومطلب احب واوقع فى القلب وادنى ارضاء الذوق واعجاب الحس ولايكون ذلك الا حين تحب الجمال منظورا او مسموعا وجائلا فى النفس وممثلا فى ظواهر الاشياء وذلك الذى عنيناه بحب الفنون الجميلة . (١٠)

ويمضى العقاد فيقول " فلا تخدعنك صياح الامم باسم الحري ولاتغرنك عظمه صناعاتها وارتقاء علومها. اذ الحق الذى لامراء فيه انه لاحرية حيث لايحب الجمال ولا انفة من الاستبعاد حيث يطبع الانسان على ان لايطلب من الاشياء الا مايضطر الى طلبه ولصورة واحدة قيمة تعجب بها الامه وتجمل عملها أدل على حريه هذه الامة فى صميم طباعها من الف خطبة سياسية والف مظاهرة والف دستور يشرع لها على الورق ولاعاصم له فى نفوس اهلها ولا اثر لحقوقه فى معاملتها . وليس بالباحث حاجة الى طويل بحث او عظيم عناء فى تعرف نصيب الامم من الحرية والعزة. انما حسبه ان

يسأل عن متحف من متاحف الفن فيها فان لم يجده فقد عرف الحقيقة من اوجز طريق . (١١)

واذا كان الفن عند العقاد دليل الحضارة والرقى ، ويفوق فى قيمته بقية الجوانب التى تدخل فى تكوين الحضارة ، فانه من ناحيه وراء كل نهضه قوميه وهنا يقول العقاد " فما لا مشاحه فيه ان النهضات القوميه التى تتخذ العزائم وتحدوها فى نهج النماء والثراء لاتطلع على الامم الا فى اعقاب النهضات الادبية التى يتيقظ فيها الشعور وتتحرك العواطف وتعتلج بسرائر النفوس ومنازعها ، ويمض العقاد فيقول " فهذه انكلترا مثلا نهضت فى تاريخها نهضتين بلغت كلتيهما اسمى ماتحلم به امه من العظمه والمجد . فكانت اولاهما فى القرن السابع عشر اى عقب ازدهار الادب الانجليزى فى عهد شكسبير وهو العهد الذي تحركت فيه عوامل الحياة فى الامة الانكليزية ووضع فيه اساس انكلترا الجديدة ، وهاهى الان فى ابان نهضتها الثانية تقبض على صولجان الدنيا بعد نهضة ادبية كبرى ظهرت فى اثنائها اكبر الاسماء المعروفه فى الادب الانجليزى اعنى بهم امثال شلى وبيرون وسكوت وكيتسى ووردزورث وكولردج وسوزى وماكولى وغيرهم ممن لم يقرضوا الشعر ولكنهم كتبوا فى النقد والادب.

وهذا شبيه بما حدث فى فرنسا اذا كانت جمهوريتها من بعض الوجوه نفحة من نفحات تلك النهضة الادبية التى يشرف عليها لويس الرابع عشر عاهل الاستبداد وعنوان الملكية المطلقة ، فمن حقق تاريخ القرن الثامن عشر فى فرنسا ولم ير فى ثورته يدا لكورنيل وداسين ومولييروبوالو وشينية وغيرهم فهو قاصر النظر.

ويمضى العقاد فى تأكيد دور الفن فى بعث النهضات القومية ويستشهد بالدولتين الاموية والعباسية كما يستشهد باقبال ناشئه مصر على الادب وهو مايعد دلالة واضحة على مقدم النهضه المرجوة وسريان النبض فى الشعور . (١٢)

ولايكتفى العقاد بتأكيد ضرورة الفن للحضارة ككل واسبقيته على مختلف ظواهرها المختلفة بل نجدة يؤكد حاجة الحضارة فى ضؤ جوانبها المختلفه الى الفن. فالشعر على سبيل المثال لاتنحصر مزيته فى الفكاهه العاجلة والترفيه عن الخواطر وتهذيب الاخلاق وتلطيف الاحساسات بل انه ايضا " يعين الامه فى حياتها المادية و السياسية وان لم ترد فيه كلمة واحدة من الاقتصاد والاجتماع، وهو مظهر من مظاهر الشعور النفسانى (١٣) ويمضى العقاد قائلا " لقد تعجل بعض الباحثين – ولاسيما من كان منهم من علماء الطبيعات فظنوا ان الناس فارقوا فطرتهم الاولى التى كانت

تنظم الشعر واتخذوا لهم فطرة اخرى لاتحسن الا فى ان تؤلف كتب العلم !! وانهم ادركوا اليوم ماكان يحيرهم فى زمان الجاهلية المظلمة من اسرار الطبيعة وخفايا نواميسها ففقدوا والاحساس بغرائبها وعدلوا عن الترنم بمحاسبتها . وانما خشيت اصحابنا العلماء ظواهر مادية العصر فرأوا ذلك الرأى الذى لم يمحصوه ولاتنظروا فيه من جميع جوانبه والا فكيف يخطر لاولئك العلماء الجهلاء ان سيأتى يوم على الانسان يقف فيه جاهدا بين ايدى هذا الوجود مهما حمل من العلم به واحاط بأسراره ؟ والحق ان علماء اليوم يعرفون من اسرار الطبيعة مالم يعرفه العلماء الاقدمون ، ولكن ماسلطان هذا التغيير على الطبائع والاهواء . (١٤)

ويمضى العقاد مدافعا عن حاجتنا الى الفنون الجميلة فيقول " والمظنون بين الاكثرين من الناس ان الفنون الجميلة عمل عقيم خال من المنافع المحسوسة . ومانشأ هذا الظن الا عن جهل بمصادر الاعمال ودوافع الحركة فى النفوس. اما الذى تثبته المشاهدة وتؤيده الخبرة فهو ان العامل لا يجود عمله ولايحذق فى صناعته الابقدر ما عنده من براعة الفن الجميل . فلاصناعة ولاتجارة ولازراعة ولاعلم ولاعمل من اعمال هذه الحياة يمكن ان يتم على الوجه الامثل فى يد صانع لاذوق فى سليقته للجمال ولاقدرة على تناول الاشياء كما تتناولها

(١٥)
يد الفنان .

وذا كان الفن عند العقاد دليل على تحضر الامم كما هو دليل حريتها فلاعجب ان نظر العقاد الى الفن والجمال من منطلق قيمة الحرية ، فالفن عند العقاد هو الحرية ، والجمال عند العقاد هو الحرية .

فالانسان عند العقاد – على حد قوله – مسوق الى حب الجمال حين يحبه بسائق لا سلطان له عليه ، والتعلق بالجمال الحى ربما بلغ بصاحبه ان يكون علاقة من علاقات الاسر المصمم المرهق لاقبل له بالخلاص منها وانتزاع نفسه من ربقتها ويفرق العقاد بين من يساق الى الاختيار والانتقاء ومن يساق الى الطاعة العمياء . والانسان فى هذا العالم مسخر لامحالة حتى حين يختار ويريد ولكنه اذا كان لابد من وصف بعض حالاته بالحرية والطلاقة فتلك الحال لاتكون فى امر من الامور اظهر منها فى ميوله الفنية ورغباته التى تقع فيها . ويمضى العقاد قائلا " ولن ترى الانسان اكمل حرية ولااطلق ارادة مما تراه فى موقف التميز بين شيئين جميلين كلاهما غير ضرورى لجسده وان يكن محببا الى نفسه .
(١٦)

واذا كانت الحرية عند العقاد قد بدت باعتبارها القيمة العليا التى ترتبط بها القيم ، فانها ايضا بدت لديه القيمة الوحيدة التى

يمكن ادراك الجمال من خلالها . فانها ايضا بدت لديه القيمة الوحيدة التى يمكن ادراك الجمال من خلالها . ومن هنا كان توحيدة بين الجمال والحرية وهنا يقول العقاد " على ان للفنون الجميلة ايضا مقياسا من الحرية لا يضل فيه القياس ، فلك ان تقول انها كلما ازداد نصيبها من الحرية سمت طبقتها فى الجمال والنفاسة ، وانها كلما قل نصيبها منها ابتعدت عن طبيعة الفن الجميل واقتربت من الصناعات النفعية والشواغل الضرورية. (١٧)

وعندما يتناول الجمال فى الجسد الانسانى نجده يقول " اقول بالايجاز ان الجمال هو الحرية !! وسيعجب القارىء من هذا القول ولكنى لا ادعه يطيل العجب ، وسابادره بتفسير ما اقول وتفصيل ما اجمل ان الوظيفة تخلق العضو ، هذه حقيقة مقررة فالانسان لا يمشى لان له قدمين بل هو له قدمان لانه اراد أن يمشى وهو لا ينظر لان له عينين بل هو ذو عينين لانه اراد ان ينظر وهكذا قل فى جميع الاعضاء والجوارح .

فالحياة اذن وظيفة او ظائف ، والاجسام واعضاوءها هى ادوات هذه الوظائف التى تعمل بها والاتها التى تبرز فيها حركتها وشعورها . وعلي حسب الحياة يكون الجسد او تكون اعضاؤه فكلما كانت وظائف الحياة ظاهرة غير معتاقة فى حركتها كانت الاعضاء

صحيحة حسنه الاداء وكان عمل الحياة بها سهلا وحريتها فيها اكمل .. وكلما كان العضو سهلا لعمل الحياة كان مؤديا لغرضه موضوعا في موضعه وكان مبرءا من النقص والعيب ، فهو العيب الذى يجاوب مطالب الحياة ويحقق حريتها ، وهو العضو الجميل . (١٨)

ويتناول العقاد رأى القائلين بعلاقة الجمال بالتناسب فيقول على اننا اذا نظرنا الى التناسب كما يصفونه فكيف ترانا نجده ؟ نجد الجسم الذى يدق حيث تناسب الدقة ويغلظ حيث يناسب الغلظ هو الجسم الذى تتصرف فيه وظائف الحياة بلا عائق فتسير حيث يجب ان تسير وتقف حيث يجب ان تقف لا تنحسر عن جانب فتتركه عظاما لا تكسل في جانب فيمتلىء شحما ، لا يعكسها شيء ولا يتعجلها شيء بل تسير في الجسم كما تشاء وتسيطر على الاعضاء كما تريد فهي حرة عاملة في مملكة مطيعة صالحة . ومعنى ذلك ان التناسب تابع لوظيفة الحياة وليست وظيفة الحياة تابعة للتناسب ، فنحن اذا عبنا طول العنق في انسان فليس طول العنق الذى نعيبه لاننا لا نعيب هذا الوصف بعينه في الاوز والنعام والزراف ، ولكننا انما نعيب اختلال وظائف الحياة وظهورها في الاعضاء علي غير الصورة التى تناسبها والتى كانت تظهر بها لو تركت لنفسها وكانت حرة فيما تصنع بغير آفة تعوقها او تحيد بها

عن سننها .

ان الجسم الجميل هو الجسم الحروما من حسناء الا وهى تعلم ذلك بفطرتها فلا تعدل بالرشاقة صفة من صفات الملاحة ، وليست الرشاقة الا خفة الحركة وليست خفة الحركة الا الدليل على ان وظائف الحياة حرة فى جسدها تخطو وتلتفت وتشير وتختال بلا كلفة ولا معاناة وتزن نفسها فى اعضائها بميزان لا خلل فيه ولا نقص يعتريه . (١٩)

وما من سهو ولا مصادفة ان كانت الامم المستعبدة ضعيفة الميل الى الرشاقة تؤثر الاجسام الغليظة المترهلة على الاجسام الممشوقة المستوية.

ويمضى العقاد في تحليل علاقة الجمال بالحرية فيقول " ولو انك تاملت فى سر حنين الشيوخ الى الشباب ورغبتهم فى الاتصال به والاقتباس من لرأيت ان احب ما يحبون منه هو ذلك الغرور المتفحم الذى لا يجعل ولا يتهيب ، وان اسر ما يسرهم منه هو انه حر منطلق لا كالشيخوخة التى لا تهم بشىء الا قام بينها وبينه الف سد من الضعف والحذر والفتور .

ويمكنك ان تقول مثل هذا القول فى الملمس الجميل وهو الملمس الناعم الذى تنساب عليه اليد فلا تمس ما يعتاق حركتها حين

تلامسه . وفى الصوت الجميل الذى نطرب له فنصفه بانه الصوت الحر " والسالك الذى لا ينحاش " كما يقول المفنون والذى تحس وانت تسمعه انه خارج من حنجرة لا عقلة فيها ومن صد لا حرج فيه بل يمكنك ان تقول مثل هذا القول فى الفكر الجميل فتصفه بانه هو الفكر الذى لاترين فيه الجهالة ولا تغله الخرافات ولا يصسده عن ان يصل الى وجهته صاد من العجز والوفاء . ثم يمكنك ان تقول مثل ذلك فى الفنون الجميلة جملةواحدة لانها هى الفنون التى تشبع فينا حاسة الحرية وتتخطى حدود الضرورة والحاجة . ،ما من شىء تستجمله وتخف نفسك اليه وهو مغلول الحياة منقبض عن وظائفها حتى الاخلاق ما من جميل فيها الا كان جماله على قدر ما فيه من غلبة على الهوى وترفع من الضرورة وقوة على تصريف النفس فى دائرة الحرية والاختيار . (٢٠)

فالجمال اذن هو الحرية ، والجمال فى الجسم الانسانى هو حريه وظائف الحياه فيه وسهولة مجراها ومطاوعه اعضاء الجسم لاغرائها وقيام هذه الاعضاء مقام الادوات الملبية لكل اشارة من اشارتها.

ويمضى العقاد قائلا"وخلاصة الرأى اننا نحب الحريه حين نحب الجمال . واننا احرار حين نعشق من قلوب سليمة صافيه ، فلا

سلطان علينا لغيرة الحرية التى يفهم بها ولاقيود فى ايدينا غير قيودها...ولاعجب فحتى الحرية لها قيود وعبيد ..(٢١)

وهنا قد نتساءل هل الحرية فى الفن بلا مقاييس؟ هل العمل الفنى لايخضع لاى منطق او قوانين ؟ هل كل عمل فنى مجرد نتاج لعالم الحرية وبالتالى فلا سلطان عليه لاحد حتى ولو كان هذا السلطان يأتيه من داخله فى صورة قيود باطنيه داخليه ؟ ألا يمكن ان تؤدى نظرته بالتوحيد بين الجمال والحرية الى ضرب من الفوض تنعدم بمقتضاه امكانية وجود قواعد او اصول ترجع اليها فى الحكم على العمل الفنى؟

وهنا يقول العقاد " ربما سمعنا من ينعى على الادب اختلاف ضوابطه وتشعب مقاييسه وانه لاحدود له كحدود العلم المقررة تميزة فى كل حالة من الحالات تميزا قاطعا بين صحيحه وفاسدة وبين جيدة ورديئه ، فقد تجمع صفه الجودة والبلاغه لالف قصيدة فى موضوع واحد ثم لايكون بينها من التشابه شيئاً كثيراً بل قد يكون فيها تناقض محسوس فى اشياء عدة وهذا صحيح – فان مقاييس الادب من السعة بحيث تأذن لكثير من الاختلاف والتشعب ... على انه لايصح ان يفهم من ذلك انها فوضى بلا قانون رشيد ولا قسطاس مستقيم ، والا لكانت الحياة نفسها فوضى بلا قوانين ولا اصول.

وهى ليست كذلك .

وعلى ذلك فالحرية عند العقاد لاتعنى الفوضى ، وحريه الفنان ليست مطلقه ، بل مقيدة بقواعد والحرية بدورها لاتنهض بغيرقيودلكن قيود الحرية لاتفرض عليها من الخارج بل تنبع من داخلها .. وقيود الفن عند العقاد لاتفرض بقانون خارجي، بل هى تفرض من طبيعه العمل الفنى ذاته ، وبذلك تبدو الحرية وكأنها تولد وتنتج قوانينها الذاتيه الباطنية الخاصه بها ، وقيود الضرورة عند العقاد هى مسار مافى النفوس من جوهر الحرية الصحيحة ، كما ان القيود التى تثقل بها اعضاء البهلوان الماهر هى مسار مهارته وقدرته على الخطو والوثب واللعب .

وقيود الشعر عند العقاد من وزن وقافيه هى التى تسمح للشاعر بأن يعرب عن طلاقه نفسه. ومن هنا كان هجوم العقاد على الشعر المتحرر من القوافى والاوزان كما كان هجومه على المدارس الفنيه الحديثه كالمستقبلية والتعبيرية والوحشيه والسيريالية.. ومن ناحيه اخرى اذا كانت الحرية عند العقاد لاتعنى الفوضى فهى ايضا لاتعنى ان الفن يمكن ان يكون بسيطا وهنا يقول العقاد " ان الاغنيه التى يهتف بها الصبية فى الطرقات ابسط من اغان شكسبير، فهل هى من مرتبه من الفن اعلى وارفع ؟ كلا على

التحقيق. فالبساطة وحدها لاتكفى للتعريف بالقول الجميل والفن الجميل. بل ينبغى ان نعرف من هو الذى يراها. ومن هو الذى يحكم لها بالبساطة والجمال . فلابد من الاستعداد الخاص لفهم الآداب وتذوق الفنون ، قبل النظر فى مسألة البساطة ومسألة الجمال - لتكن ايها الاديب بسيطا.. نعم ولكن فى نظر من ؟

فى نظر القارىء المثقف او فى نظر السامع الساذج ؟ فى نظر الخبير بالكلام او فى نظر الجاهل بخير الكلام ؟ فكل من هؤلاء له بساطه يدركها ويستحسنها وبساطة الواحد منهم فى غايه التركيب والتعقيد عند آخرين ... ان موسيقى فاجنر ضجه مقلقه عند من يطرب للعزف على الربابه . وان العزف على الربابة اقل من الف باء فى قاموس الموسيقار الكبير. فليست البساطة شيئا معروفا لذاته وانما نعرفها حين نعرف من يتذوقها وهو على استعداد لفهمها وحينئذ نقول ان هذا الكلام جميل وبسيط ، بسيط فى نظر من ؟

هذا هو السؤال بغيرة لانصل الى جواب مفيد ، كان اناتول فرانس ممن يقولون ببساطة البلاغه وببساطه الجمال ، الحق انه مثل فى البلاغه البسيطة بين اعاظم الكتاب العالميين.

فاذا تحدث اناتول فرانس عن البساطة البليغة ، فهو صاحب

حق فى هذا الحديث ، لانه كاتب عظيم ولانه مع عظمته بسيط بليغ ..

على اننا نظلم اناتول فرانس اذا قسنا معانيه على سهوله اسلوبه ومفرداته، فليس اصعب من الشعور بتأييس فى جوها التاريخى او جوها الفنى او جوها الذى يمتزج باللهو والعبادة . وان كانت كلمات الرواية أسهل من الكلمات فى اساليب العظماء ، وقد بين لنا اناتول فرانس حقيقة البساطة التي يعنيها حين تحدث عن شرط البساطة فى الكلام الجميل ، بين لنا ان النور الابيض بسيط جميل ، ولكنه مع هذا مركب من سبعه الوان وليس معنى بساطته انه اقل من النور الاحمر او النور الاخضر او سائر الوان الطيف . وانما معناها انه مركب خفى التركيب مقارنه حسنة ومقارنة نستطيع ان نمضى معها الى نهايتها هى ان نسأل عن الناظر الى النور كما سألنا عن الناظر الى البساطة قالوا المهم فى امر البساطه هو من الذى يتلقى الكلام البسيط والجميل ؟ والسؤال المهم فى امر النور هو من الذى ينظر الى النور او من الذى ينظر فى النور ؟

فلا فائدة من النور الابيض ولا من النور الاحمر اذا كان الناظر ضعيف البصر ، او كان الذى يتلقى النور مغمض العينين او عاجز عن الابصار. ان النور الابيض بسيط جميل الا انه سبعه الوان ولا غنى له فى الناظر به او الناظر عليه فى عينين تبصران

ويبعدان عن الاشعه والظلال وكذلك نور الكلام والمجاز غير بعيد.

ويمضى العقاد قائلا : ومصداقا لهذا الرأى الذى اجمله اناتول فرانس نقول انه مطابق لآراء اهل البيان والنقد من اداب كثيرة تعددت فيها اللغات واساليب الشعر والنثر . ومنها ادب اللغة العربية.

فان نقاد العرب الأقدمين وصفوا الكلام البليغ بأنه السهل الممتنع فجمعوا محاسن الكلام البليغ فى كلمتين . هما السهل الممتنع في التعريف والاجمال. وفحوى هاتين الكلمتين فى الادب قد يكون سهلا ولكنه ينفاذ لطائفة من الأدباء ويمتنع عن طائفة اخرى وقد ينقاد لفريق من القراء ويمتنع على طوائف شتى وانما المرجع فى السهول الى استعداد الكاتب واستعداد القارئ وليس هذا الاستعداد بالمطلب البسيط.

فسهولة الأدب الفني غير سهله او هي صعوبة مروعه ممهدة يستطيع الا من كانت له قدرة الطبيعة فى مزج الالوان وتبسيطها وهى التى تجمع سبعة الوان متفرقات فى الوان الابيض البسيط.

وبذلك فالسهولة عند العقاد لا تتحقق الا بصعوبة مستوى هذه الصعوبة الشاقة ان نستعد لها بالأطلاع . ونستعد لها بالمرانة ونستعد لها برياضة الذوق. ونستعد لها بالاضافة والخطأ وبالتمييز بين كثير من الاصابات وكثير من الاخطاء.

تلك هى البساطة التى ينشدها العقاد. بساطة مع الاستعداد وليس الاستعداد بالشئ البسيط اذا فهمنا من البساطة معنى السهولة وقلة الجهد والمثابرة . (٢٤)

والحق ان العقاد فى نظرته الى العمل الفنى من هذه الزاوية التى تؤكد حاجة الفن الى الاستعداد والمران والخبرة والمران والتيقظ والتنبه اكد لنا رفضه بطريقة ضمنية واضحة لكل النظريات الجمالية السيكولوجية التى ارجعت العمل الفنى الى حالات الحلم او الغيبوبة او ما يشبه التنويم المغناطيسى . وعلى سبيل المثال نجد برجسون يقول « غاية الفن ان ينيم فنيا القوة النشيطة أو قوى المقاومة فى شخصيتنا . وهكذا يبلغ بنا حالة من الستجابة لنحقق فيها الفكرة الموصى بها الينا . ونتعاطف مع الشعور المعبر عنه وسنجد فى عملية الفن صورة مرهقة والى حد ما مصبوغة بالروحانية من العمليات التى نستعملها فى العادة لنحقق بها حالة من حالات التنويم المغناطيسى الا انها على شكل اضعف.

ولا شك ان مثل هذه النظرة لا تتفق مع ما ذهب اليه العقاد . ففى حالة التنويم المغناطيسى قد نوحى الى الانسان باعمال معينة او نرغمه على احساس عاطفى معين . لكن الجمال عند العقاد لا يمكن

فرضه على الوجدان بهذه الطريقة . ومن شاء ان يحس بالجمال فلا يكفي إن يتعاطف مع مشاعر الفنان ، بل ان عليه ان يدخل فى صميم نشاطه الابداعى الخلاق .

ومن هنا فالمتذوق عند العقاد له دور ابداعى واضح فى تذوقه للجمال ، وهو حقيقة دور ايجابى ، انه يشارك الفنان فى صميم نشاطه وابداعه بتذوقه الجمال ، واذا نجح الفنان فى القضاء على القوى النشطة الخلاقة ومراكز اليقظة والتنبيه والوعى فى وجداننا فاننا لن نتمكن من ادراك الجمال بهذه الطريقة. فالحدس البرجسونى لا يتفق مع رؤية العقاد الجمالية ، ذلك انه لا يمكن ان يكون مبدأ فعالا، ، وانما فى المحل الأول مجرد شكل من اشكال التلقى ، وهو مجرد فاعلية سلبيه وليس مجرد صورة وبناء ومعاناة حقيقية.

والعقاد من جهة اخرى لا يمكن ان يتفق مع اصحاب النظرة الرومانسية فى علم الجمال ممن رفضوا اخضاع الفن للقواعد والأصول، فقد زعموا ان اى كتاب فى الشعر لا يستطيع ان معلمينا طريقة كابج قصيدة جيدة ، ذلك ان الفن نشأ من مصادر ابعد واعمق واذا شئنا ان نستكشف مثل هذه المصادر فعلينا ان ننسسب معاييرنا العامة الدارجة ونغوض فى خفايا حياتنا اللاواعية فالفنان هو فى

حالة من اللاوعى والغيبوبة ، ومتى ايقظناه حطمنا قدرته الابداعية. ومن هنا قال شلجل بداية كل شعر هو ان يلغى قوانين العقل ويغوص بنا مرة اخرى فى الفوضى الاصلية للطبيعة الانسانية. ولا شك ان مثل هذه النظرة تتعارض كليةما يتطلبه العقاد من شحذلكل قوانا سواء فى ابداع العمل الفنى او تلقيه ، وهو مالا يمكن ان يتحقق فى ضوء حالة اللاوعى او حالة الغيبوبة الكاملة .

واذا كان العقاد فى فلسفته الجمالية قد نادى بشروط محددة واضحة فى ابداع الفن وتلقيه ، رفض للفوضى واستعداد ومران وخبرة ومعاناة حقيقية تؤدى بنا فى النهاية الى معايشة التجربة الجمالية والفنية بصدق ، فانه بذلك لم يجعل الذيوع والأنتشار والتقبل الجماهيرى معياراً للحكم على العمل الفنى . ولم يجعل المشاركة الوجدانيه التى نادى بها تولستوى بما تفيده من قيام العمل الفنى بنشر العدوى الوجدانية بيننا - لم يجعل منها مبدأ نعتمد عليه فى تقدير قيمة العمل الفنى ، فالعمل الفنى لا يعتمد فى تحديد قيمته على انتشاره جماهيرها وتقدير العدد الاكبر من الافراد له ، ولو كان هذا صحيحا لكانت الاغنية التى يهتف بها الصبية ويرددها الكبار فى المناسبات اروع من سيمفونيات بتهوفن

وكانت اللوحة الفنية التى تقلد الطبيعة بصورة ساذجة حرفيه تتفق مع تذوق قليلى الثقافة الفنية اروع من لوحات كبار الفنانين العظام .

ولا شك ان موقف العلماء هو تأكيد ودفاع عن قيمة الحرية التى ينظر الى الجمال من خلالها . فالحرية لاتعنى السلبية والعجز والتلقى البسيط والنقل الساذج من الواقع بل انها تعنى اطلاق كل الطاقات الخلاقة فى ابدعنا وتذوقنا للجمال . وهنا يقول العقاد «لهذا كان التقليد فى الفن قبيحا مزريا لانه من العبودية لا من الحرية . » وكان الاكتفاء بالنقل عن الطبيعة اضعف مراتب الفن واسخف مجهوداته لانه من عمل الالات الجامدة لا من عمل النفوس الحية الشاعرة ولا يكون الفن فنا جميلا عاليا الا حين يصبغ الطبيعة بصفة النفس التى تراها وتمثلها للنظارين جامعة بين كمال الطبيعة وكمال الحياة . فلو انك فتشت عن علة تجعل للتصوير الرمزى مكانه بين فنون التصوير لما وجدت لذلك من علة غير وفرة نصيبه من حرية السفن . ولا سيما حين يرمز الى المثل العليا ، اذا كانت المثل العليا ارفع الآمال وكانت الآمال اظهر مظاهر الحرية الانسانية . الروح والحرية.

والحق أن العلاقة وطيدة للغاية بين الرؤية الجمالية عند

العقاد الرؤية الجمالية عند برديائف ، واذا كان البعض قد تناول تأثير شيلر في الفكر الجمالي عند العقاد . فاننا نرى ان العقاد الى حد ما كان متجاوبا مع نظرة برديائف الجمالية ، فليس الجمال عند برديائف مجرد مقولة جمالية فحسب بل هو ايضا مقولة ميتافيزيقية باعتباره سمة الوجود في اروع مظاهره . وهو ذروه ما يمكن ان يصل اليه الموجود البشري ، فهو ليس جزءا منفصلا عن الوجود ، بل بعد أساسي من ابعاده ، والجمال عند برديائف يفترض وجود العماء ، تماما كما يستتبع افتراض الخير وجود الشر.

كما ان التأمل الجمالي عنده يمثل عملا خلاقا ابداعيا من الطراز الاول يتقدم بواسطته الموجود البشري ليقهر كل عماء يعترضه ويصوغ ويشكل كل شئ يجده ماثلا امامه ليحيل بذلك الوجود الى تجربة جمالية. وبيرديائف يرفض القول بوجود جمال موضوعي ، والجمال عنده لا يدخل الانسان من العالم الموضوعي ، بل انه اقتحام الذات لهذا العالم ولا شك ان موقف العقاد هو تأكيد ودفاع عن قيمة الحرية التي ينظر الى الجمال من خلالها . فالحرية لا تعني السلبية والعجز والتلقي البسيط والنقل الساذج من الواقع بل انها تعني اطلاق كل الطاقات الخلاقة في ابداعنا وتذوقنا للجمال. وبذلك فالجمال عنده هو جمال الكون المرتبط بالعمل الخلاق الانساني .

وللفنان المبدع العظيم الذى ابدع القصائد الشعرية والأعمال الدراميةوالقصص و السيمفونيات والصور والتماثيل كان دائماً خلاقاً وقاهراً لعبث ومقاومة عالم الضرورة و المادة . عالم العبودية. وقيمة العمل الفني عند بيرديائف تتحدد في ضوء طبيعة الرمزية ، تتحدد في ضوء اتجاهه الي تغيير العالم وتجاوزه انه أداة تجاوز وتخطى حدود عالمنا الموضوعى في إتجاه العالم الذاتى والحريةوهنا ايضا يقول العقاد لهذا كان التقليد في الفن قبيحاً مزرياً لأنه من العبودية لا من الحرية . وكان الأكتفاء بالنقل عن الطبيعة اضعف مراتب الفن واسخف مجهوداته لأنه من عمل الالات الجامدة لامن عمل النفوس الحية الشاعرة ولا يكون الفن فناً جميلاً عالياً إلاحين يصبغ الطبيعة بصبغة النفس التي تراها وتمثلها للناظرين جامعة بين كمال الطبيعة وكمال الحياة . . فلو انك فتشت عن علة تجعل للتصوير الرمزى مكانه بين فنون التصوير لما وجدت لذلك من عله غير وفرة نصيبه من حرية النفس ، ولاسيما حين يرمز الى المثل العليا ارفع الأمال وكانت الأمال أظهر مظاهر الحرية الأنسانية،

والعقاد حريص كل الحرص على تأكيد استقلالية الفن وهو بتأييده هذا يدعم مرة اخرى الصلة الوطيدة بين الفن والحرية وهنا يقول العقاد فى مقال له بعنوان معرض الصور نشر بالاهرام فى ٢٣

مايو ١٩٢٢ تعقيبا ونقدا لاعمال عدد من الفنانين « لا يفوتنا ان نلاخظ فى هذه المناسبة ما بين الحياتين السياسية والفنية عن علاقة ظاهرة – ففى العام الماضى لما كان هوج الحركة السياسية فى مصر يهب على كل شئ وكانت النخوة القومية على اشدها سرت منها سارية حياة الى معرض الصور فانتعش واصابه من حرارتها قبض صالح. اما فى هذا العام فقد فترت تلك الحرارة وهدأت تلك الحركة وضعف الاقبال على الفن كما ضعف التلفظ بالسياسة.. ولسنا نود ان يتوقف تقدم الفنون عندنا على مجرى الحياة السياسة الظاهرة ولا ان يفتر الاهتمام بالتصوير والموسيقى والتمثيل والادب كلما مرت حملات الصحف والخطباء عندنا هدأة عارضة او هدنة موقوته. فان قيام الفنون على برامج السواس يضر كما يفيد بل يضر اكثر مما يفيد . ولكن لانصراف الناس عن تنشيط معرض الصور هذا العاخم سبب غير الذى المعنا اليه؟ لا نظن . وان كان يسرنا ان نبادر مع ما أصابه منها فى من التشجيع فى العام الماضى وما قبله . ولا يخفى ان الفرق كبير بين المساعدة والانشاء وبين فن له اساس وفن لا اساس له غير هذه الحركات السياسية التى تذهب كل حين وتعود. (٢٥)

واذا كان العقاد ينادى باستقلال الفن ، فانه من ناحية اخرى

لا يتجاهل تأثيره الاجتماعى والسياسى ، وهنا يقول فى مقدمته للجزء الثانى من ديوان شكرى الذى طبع سنه ١٩١٣ « فالشعر لا تنحصر مزيته فى الفكاهه العاجلة والترفيه عن الخواطر - لا ، بل ولا فى تهذيب الاخلاق وتلطيف الاحساسات - ولكنه يعين الامة ايضا فى حياتها العادية والسياسية وان لم ترد فيه كلمة عن الاقتصاد والاجتماع . فانما هو كيف كانت موضوعاته وابوابه مظهر من مظاهر الشعور النفسانى ولن تذهب حركة فى النفس بغير اثر ظاهر فى العالم الخارجى». (٢٦)

وإذا كان هناك من ربط بين الجمال والغريزة الجنسية بأعتبار أن الجمال فى رأيهم هو الغريزة الجنسية وعنوان اهواء التناسل او الرغبة فى حفظ النوع ، فإن العقاد فى تناولة لاصحاب هذا الرأى ومن ابرزهم ماكس نوردو رأى ان الغريزة الجنسية وإن كانت اقوى الغرائز واعمقها واكثرها تفرعاً وتوزعاً فى جوانب الاحساس ودخائل التفكير لكنها من ناحية اخرى لا يمكن أن تكون أصل كل شعور بالجمال وأن الحياة نفسها لا جما لها الا من حيث انها علاقة بين ذكر وانثى ووسيلة لأعطاء الحياة لمخلوق جديد . (٢٧) فالحياة عند العقاد غاية الغريزة الجنسية وليست هى الجسر الذى نعبره الى الحب والجمال . وإذا كانت الغريزة الجنسية مودعة فى جميع الاحياء

و النبات ، لكن جمال الاشكال و الالوان لا يقسم لها جميعا ولا يكون حظها من الغريزة الجنسية . واحب الناس للجمال عند العقاد هم ارفعهم نفوسا واسلمهم أذواقا واحسنهم تهذيبا واشوقهم الى المتع المعنوية كما ان الغريزة الجنسية قد تتم وتقوى فى اناس لاحظ لهم من رفعة النفس وسلامة الذوق وحسن التهذيب ومن هنا ذهب العقاد الى القول بأن الجمال هو غاية الحياة ، اما الغريزة النوعية فهى احدى وسائله ، او هى أقوى وسائله الى تلك الغاية . وقد يتغلب الشغف بالفن احيانا على غريزة النسل فلا يهنأ الفنانون بالنسل الموفق السعيد ، ولا ينمو حب الجمال فى الفنانين على حساب الغريزة النوعية الا لأنهما شريكان متكافلان يزيد فى احدهما ما ينقل من الاخر . (٢٨)

وبعدما أكثر الجوانب التى يمكن تناولها فى فلسفة الفن والجمال عند العقاد . وقد يصعب الاحاطة بها جميعا فى مثل هذه الدراسة ، ولكن حسبنا فى النهاية ان نقول ان فلسفة العقاد الجمالية جاءت مترابطة متماسكة البنيان متقسة المحاور واضحة المعالم – جاءت محصلة عقل نقدى يتأمل وينظر ووجد ان حى يبدع ويتذوق ويتعايش ، وجاءت محصلة شخصية العقاد ككل .

مصادر الدراسة

(١) عباس محمود العقاد . الغرب الحائر . مقال بكتاب بين الكتب والناس . دار المعارف الطبعة الرابعة ٨٥ ١٩. ص١٠٤.

(٢) عباس محمود العقاد . عقائد المفكرين فى القرن العشرين -دار الكتاب العربى بيروت ١٩٧٦

(٣) عباس محمود العقاد . الآلم و اللذة .البلاغ مايو ١٩٢٤نشر بكتاب مطالعات فى الكتب و الحياة ط ٤ دار المعارف ١٩٨٧ص٢٥٤.

(٤) عباس محمود العقاد . الوجودية الجانب السليم منها . بين الكتب و الناس . ص١٢

(٥) عباس محمود العقاد . الوجودية الجانب المريض منها . بين الكتب و الناس ص٢٠

(٦) عباس محمود العقاد . عقائد المفكرين فى القرن العشرين ص١٧٦

(٧) عباس محمود العقاد . مطالعات فى الكتب والحياة ص٢٤٩

(٨) عباس محمود العقاد . مقدمة الطبعة الأولى لكتاب مطالعات فى الكتب و الحياة ص٤ : ٥.

(٩) عباس محمود العقاد . الادب كما يفهمه الجيل . نشر بالعدد الثالث من الشكاة. بكتاب مطالعات في الكتب و الحياة ص١٢.

(١٠) عباس محمود العقاد . الحرية و الفنون الجميلة . البلاغ ٢٦فبراير ١٩٢٣. مطالعات فى الكتب والحياة ص٥٩

(١١) المرجع السابق ص٥٩-٦٠ .

(١٢) عباس محمود العقاد . الشعر ومزاياه مقدمة الجزء الثانى من ديوان

شكرى المرجع السابق ص٢٩٢

(١٣) المرجع السابق ص٢٩٣.

(١٤) المرجع السابق ص٢٩٣-٢٩٤ .

(١٥) عباس محمود العقاد . فى معرض الصور من مقال نشر بالبلاغ ١٧مارس ١٩٢٤ مطالعات فى الكتب و الحياة ص٢٠٩-٢١٠

(١٦) عباس محمود العقاد . الحرية و الفنون الجميلة ٢٦ فبراير ١٩٢٣ . مطالعات فى الكتب و الحياة ص٦٠

(١٧) المرجع السابق ص٦٠-٦١ .

(١٨) عباس محمود العقاد . فلسفة الجمال والحب . البلاغ ٢٠مايو ١٩٢٤. مطالعات فى الكتب والحياة ٢٤٩-٢٥٠

(١٩) المرجع السابق ص ٢٥٠- ٢٥١.

(٢٠) المرجع السابق ص ٢٥١-٢٥٢.

(٢١) المرجع السابق ص٢٥٣.

(٢٢) الادب كما يفهمه الجيل ، العدد الثالث من الشكاة مطالعات فى الكتب و الناس . ص١٢-١٣

(٢٣) البساطة فى الادب و الفن بين الكتب و الناس . ص٢٩٧-٢٩٨.

(٢٤) المرجع السابق .ص٣٩٩-٤٠٠

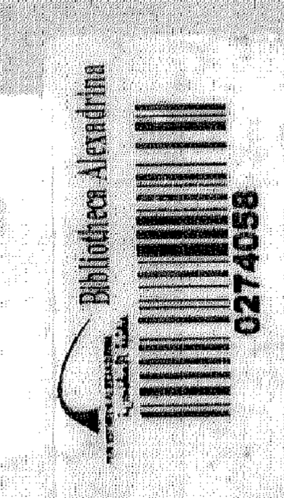
(٢٥) عباس محمود العقاد . فى معرض الصور . الاهرام ٢٣مايو ١٩٢٢. مطالعات فى الكتب و الحياة ص١٧

(٢٦) عباس محمود العقاد . الشعر ومزاياه مقدمةالجزء الثانى من ديوان شكرى . مطالعات فى الكتب و الحياة ص٢٩٣-٢٩٤ .

(٢٧) عباس محمود العقاد . مراجعات فى الآداب و الفنون . المكتبة العصرية ١٩٢٥ . ص٨٢-٨٣

(٢٨) المرجع السابق .ص٨٨-٨٩ .

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
٩٣/ ٧١٧٧
I.S.B.N
977-00-5473-9


Bibliotheca Alexandrina
0274058